(٤) إبحار فى الجذور

العلامة القرضاوية :

- نعم أنا إنسان عاطفى، فالإنسان من عقل وقلب.
- بناتى أربع، وأولادى ثلاثة، وأحفادى أحد عشر حفيداً.
- أضحك وأمزح وأنكت، ولابد للإنسان من ساعة وساعة.
- الإحساس بالمؤلم أشد عندى من الإحساس بالمفرح.
- أرادنى عمى خيّاطاً أو تاجراً، وتركز طموحى أن أكون عالماً بالأزهر.
- لم يؤثر اليتم على نشأتى كثيراً، وعوضنى عمى وخوالى عنه.
- لا أعرف شيئاً يسمى إجازة، فمن يعمل بالعلم والدعوة لا يملك وقت فراغ.
- لماذا كان القرضاوى يفطر خارج بيته فى (صفط تراب) فى رمضان ؟

obeikandl.com

(٤) إبحار فى الجذور

يعد الجانب الشخصى لدى الفقيه المعاصر د. يوسف القرضاوى غائباً عن الجماهير التى تتابعه عبر الفضائيات، ومن خلال كتبه التى تعدت المئة، وخطبه ومحاضراته.

الطفولة والنشأة، الأولاد والأسرة، البيت والزوجة، محاور لابد من تناولها فى سياق الجانب الإنسانى لدى القرضاوى. أما ما يؤثر فيه، ويقف ضعيفاً أمامه، فقد حكى للأهرام العربى ما يتحدث به لأول مرة لصحيفة عربية.

إضافة إلى ثنايا ومواقف سوف تكون عبر هذه الأوراق من خلال الحوار مع القرضاوى:

نشأت فى جو أُسرى محاطاً بحب الجميع، خاصةً أننى كنت وحيداً لدى والدتى، فى قرية مصرية كأى شاب مصرى ريفى من أسرة متدينة بسيطة، وفى مجتمع يعتبر الدين أهم شئ فى وجوده، وفى الخامسة ذهبت إلى احد كُتَّاب القرية (صفط تراب) الأربعة، وهى قرية عتيقة تعود إلى موت آخر الصحابة فى مصر بها، هو عبد الله بن الحارث بن معد كرب الزبيدى .. (الصفط فى اللغة: السلة أو السَّبَت، ولعلها منقولة من اللغات القديمة).

حفظت القرآن وأنا ابن تسع سنين وعدة أشهر، وقدمنى الناس للصلاة خاصة فى رمضان، فكنت إماماً لهم أرتل القرآن بصوت خاشع فيبكون ورائى متأثرين .. شيَّخنى الناس منذ الصغر، فضاعت طفولتى، وهل يلهو الشيخ يوسف ويلعب ؟!

رمضان فى قريتى

● **كيف كان الطفل يوسف يقضى شهر رمضان فى القرية المصرية ؟**

قبل معرفتى وأطفال القرية بمعنى الصوم؛ كنا نهلل ونكبر عند المغرب وسماع انطلاق المدفع .. وأول صوم رمضان كان عمرى فيه سبع سنين، وكان رمضان يقع فى الشتاء حيث اليوم القصير والجو بارد.

وكنا – كأولاد – نفطر فى مكان خارج البيت، فما إن يقترب المغرب حتى يأتى كل واحد منا بطبق من طعام بيته لنفطر معاً، فإذا قدم غريب أو عابر سبيل يفطر معنا دون أن يطرق الأبواب على أحد .. وفى رمضان شهر القرآن تقوم العائلات الغنية بإحضار حفظة

القرآن، فيتلون القرآن الكريم بعد صلاة التراويح، وقد يحضرون من يفسر ما تمت تلاوته من آيات استمع إليها الناس، كم حضرت مثل هذه الدروس واستمعتُ إليها ووعيتها جيداً.

- **هل أنت نادم على شئ ضاع فى طفولة الشيخ ؟**

– أندم على خمس سنين ضاعت من عمرى، لم يوجهنى أحد للاستفادة من هذا السنوات .. وما حدث هو أننى حفظت القرآن الكريم دون العاشرة، ولم أدخل معهد طنطا الدينى الأزهرى إلا فى الرابعة عشرة ... لم يكن أحد يقدر قيمة الوقت .. ولو تعلمت اللغات لكنت أتقنت لغة أو أكثر .. أو حفظت كتب الحديث أو دواوين الشعر .. لكنى لا أملك إلا أن أقول: الحمدُ لله على كل حال.

عالم بالأزهر

- **كيف التحقتم بالأزهر: هل كان الخيار الأوحد ؟ أم تملكتم دوافع محددة للسير فى هذا الطريق ؟**

لم يكن الطريق سهلاً: فقد توفى والدى وأنا ابن الثانية، وكفلنى عمى وكان مزارعاً مستوراً، وإن لم يكن من أهل الغنى، وكان يرى التعليم غيرُ مُجْدٍ، وكنت فى غاية الشوق للتعليم بالأزهر، وكان يشغلنى ويمثل أمنياتى وطموحاتى أن أكون عالماً من علماء الأزهر، بينما يرى عمى أن علماء الأزهر الذين تخرجوا فى قريتنا، وحصلوا على الشهادة العالمية، كانوا يجلسون فى القرية ولا عمل لهم، وكانت هناك بطالة فى هذا الوقت، خاصة خريج الأزهر، فكان عمى يقول: تظل خمس عشرة سنة تتعلم، ثم تأتى لتقعد على المصطبة مثل الشيخ فلان والشيخ فلان ؟!

ولم تكن وزارة المعارف تقبل خريجى الأزهر للعمل بها معلمين، ومن قُبل منهم معلماً، لا يقبل إلا إذا كان من الأوائل، ويعين بثلاثة جنيهات فى الشهر، وكانت فكرة عمى أن أتعلم شيئاً آخر: صنعة خيَّاط مثلاً، قال لى: أو نفتح لك دكاناً، عندنا (مندرة) – حجرة فى المنزل مطلة على الشارع بالدور الأرضى – نعمل لك باباً بها على الشارع، ونأتى لك بالبضائع وتشتغل فى التجارة، وحينما تكبر تشتغل كاتباً فى مصالح الحكومة، أو فى الدوائر الزراعية (كانت هناك طريقة قديمة فى الحساب تُسمَّى الذبية) كان التفكير يدورفى أشياء سريعة الجدوى، أما التعليم الطويل الذى يُخشى ألا يكون وراءه مستقبل مضمون، فإن عمى – الذى كفلنى رحمه الله – لم يكن مقتنعاً به.

• **إذاً كيف تغير الموقف، وتغلبت على فهم العم لأمر التعليم الطويل؟**

إصرارى من ناحية، واشتياقى الشديد، وإلحاحى فى أن الأمور بيد الله، وأن المستقبل له، ولا يعلم أحد الغيب، وأنه ما بين سنى والخامسة عشرة موعد دخول الأزهر لا يعلم أحد ماذا سيجرى فيها، وإذا أراد الله شيئاً هيأ له الأسباب .. كان ذلك وراء اجتياز العقبة.

أما الأسباب المباشرة فهى أننا كنا فى الحقل مرة، ومرَّ علينا أجد العلماء من قرية مجاورة لقريتنا فى طريقه لبلد اسمها (البهَّات) ... قال الرجل: هل عندكم ماء بارد، قالوا له: تفضل يا سيدنا الشيخ، فجلس وجاءوا له بالقُلَّة (من الفخار) وشرب وجلس، فقال عمى له: يا سيدنا اختبر لنا الشيخ (بتاعنا) ابننا هذا، هل هو حافظ للقرآن ؟ فسألنى الشيخ: أأنت حافظ القرآن. قلت: نعم حافظ، فسألنى فيه ... وكلما سألنى أجبت، وأقرأ قراءة جيدة بحسن ترتيل، فأعجب الرجل وقال لعمى: لماذا لا يذهب ابنك هذا إلى الأزهر ليتعلم فى المعهد ؟ فقال له عمى: إن الأزهريين يتخرجون ولا يجدون عملاً، فقال له: يا شيخ أنت مغسل وضامن جنة وهو مثل يُضرب لمن يتحدث عن نتائج الأعمال قبل عملها، وأضاف: انت تعلمه وتترك الأمر لله ؟ وهل تضمن العيش له حتى يتخرج ؟ وقال أيضاً لعمى: حرام عليك إذا لم تعلِّمْه .. قوَّى هذا من عزيمة عمى، وكان أبناء عمى متحمسيْن لذلك رغم أنهما من الفلاحيين.

• **كأن اليتم لم يؤثر فى الطفل يوسف رغم موت الأب، إذ كنت أبناً لعمك؟**

بالفعل كان عمى هذا خيراً لى من كثير من الآباء، وكان أبناء عمى أكثر من إخوة، كان منه العطف والحنو، وكانت الإخوة منهما، لذلك فإنى حقيقة لم أشعر باليتم فى مثل حالتى، فقد عوضنى الله بحب الأقارب سواء من ناحية الأب أو من جهة الأم، فخالى وخالاتى وأبناء خالاتى وأقاربى كانوا يحيطوننى بدرجة عالية من الحب والود.

الوقت مشكلة

• **إذا كانت سنوات الانتظار فى الأزهر قد ضاعت سدًى، هل مثَّل الوقت مشكلة لك بعد ذلك عبر مسيرة الحياة ؟**

الوقت عندى مشكلة .. قد تستغرب إذا قلت لك: إننى أكاد لا أعرف شيئاً يسمى الإجازة، ربما أعمل فى الإجازات أكثر من أيام العمل الرسمية ! فمن يعمل بالعلم والدعوة

لا يملك وقت فراغ، ومشكلتى الكبرى أن الواجبات أكثر من الأوقات، ولا أجد وقتاً لكل ما يطلب منى .. فلا أجد وقتاً لقراءة الرسائل التى تأتينى فضلاً عن الرد عليها، وهى رسائل تحمل مطالب شتى من المشارق والمغارب، والشهرة لها ضريبتها، وأنا فى تحرج وتأثم أمام هؤلاء، فالقراءة وحدها لتلك الرسائل تحتاج تفرغ .. وإذا فرغت منها فمتى أؤدى عملى، وعندى عمل رسمى، وعملان آخران أراد الله لى أن أجمع بينهما: العلم والدعوى، وهذه تحتاج إلى نوع من الرهبنة، فلكى تؤلف وتكتب علماً أصيلاً، فإنك تحتاج إلى نوع من التفرغ كتفرغ الراهب فى صومعته، والدعوة تحتاج إلى النقيض: الحركة والاتصال بالناس واللقاءات، كل هذا يكاد لا يترك لى وقتاً أقضيه فى إجازة.

الواجب الاجتماعى ضرورة

- **كيف تقضى الواجب الاجتماعى بينك وبين الآخرين ؟**

مهمة الداعية أن يكون وثيق الصلة بالناس، لأنه صاحب رسالة لا يستطيع الانعزال، فبينى وبين الأصدقاء والجيران والأقارب زيارات؛ وإن كنت لا أجد الوقت الكافى، على الأقل فى المناسبات، وفى مثل هذه الحالة نمضى الوقت كما يمضيه كل الناس: نضحك ونمزح وننكت.

- **لكن بعضهم يربط بين عملية التدين وهجر المزاح، لعلهم يقصدون الوقار ؟**

أنا لست ضد الحياة المرحة اللطيفة الباسمة، فبعض الناس يظن أن التدين تجهم ووجه عبوس وحياة نكِدة، والضحك أصلاً من خصائص الإنسان، لا الحيوان، ووصف الصحابة رسول الله ﷺ بأنه كان من أفكه الناس؛ وقال رسول الله ﷺ: " يا حنظلة ساعة وساعة "، لكن ما أدعو إليه هو ألا يجعل الإنسان ساعة القلب تطغى على ساعة الرب.

- **لو أرتددنا إلى الداخل: بأى ساعة تعرفك أسرتك داخل بيتك؛ وهل يغلب على وجه الأب انشغالُ الفقيه ؟**

أعاننى الله على أمرى العلم والدعوة بأسرة هادئة، زوجة صالحة اقترنت بها فى ديسمبر (١٩٥٨م)، من أصول طيبة، هاشمية حسينية، رزقنى الله منها بنين وبنات .. إنها أم محمد الجندى المجهول فى مسيرتى، نعم العون على مهمتى العلمية والدعوية والتربوية .. قدرت ظروفى ورسالتى العالمية .. فصبرت على انشغالى بهموم الدعوة والأمة .. إنها ربة منزل من الطراز الأول، تمتلئ وفاء، هى فوق ذلك أم لا مثيل لها.

وقد وفقنى الله عز وجل فى أبنائى وبناتى وأحفادى، فلم أفرض على احد منهم تخصصاً معيناً، بل تركت لكل منهم أن يختار اتجاهه بمحض إرادته، وقد كنت اتمنى أن تدرس بناتى فى الاتجاه الأدبى، لكنهن جميعاً اخترن التخصص العلمى، فلم أجد إلا الاستجابة لرغباتهن، وشجعتهن، وتفوقن فى المجال الذى أحببنه .. كما اتجه أولادى الرجال إلى القسم العلمى إلا واحد.

بناتى وأولادى وأحفادى

• من هم أولاد وبنات الشيخ ؟ وأى دراسة حصّلوا وإلى أين وصلوا فى هذه الدراسة التى ربما تكن قريبة من الفقه والدراسات الشرعية ؟

عندى بنات أربع ؛ تخرجت الأبنة الكبرى (إلهام) بامتياز فى الفيزياء، حصلت على درجة الدكتوراه فى الفيزياء النووية من جامعة لندن، وهى تدرِّس بجامعة قطر، وتخرجت الثانية (سهام) بامتياز أيضاً فى قسم الكيمياء، وحصلت على الدكتوراه من جامعة (ريدنج) بانجلترة فى الكمياء العضوية، وتدرِّس أيضاً فى كلية العلوم أيضاً فى جامعة قطر.

وتخرجت الثالثة (علا) بامتياز فى قسم الحيوان، وحصلت على الماجستير من جامعة تكساس بأمريكة فى الهندسة الوراثية، وعملت بمركز البحوث العلمية بالجامعة، ثم اضطرت إلى الاستقالة لتلحق بزوجها فى القاهرة، رغم أنها كانت الثانية فى دفعتها على جامعة قطر، أما الرابعة (أسماء) فقد حصلت على الماجستير من جامعة الخليج بالبحرين قسم النبات، وتستعد الآن لمناقشة رسالة الدكتوراه فى جامعة نوتنجهام بإنجلترة مع زوجها إن شاء الله.

ومن الأولاد (محمد) فهو الأبن الأكبر، تخرّج فى كلية الهندسة بجامعة قطر قسم الميكانيك، وحصل على الماجستير من جامعة (نفر) فى كلورادوا، وقد حصل منذ عدة أسابيع فقط على درجة الدكتوراه من جامعة أولاندو فى فلوريدا، أما الأبن الأوسط (عبد الرحمن) فقد اختار خطاً آخر، فقد التحق بإرادته بالمعهد الدينى فى قطر، وواصل دراسته فى كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية بجامعة قطر، وهو يستعد لمناقشة الماجستير فى كلية دار العلوم بمصر خلال أسابيع قليلة، وهو معيد بكلية الشريعة بجامعة قطر، ومبعوث منها إلى دار العلوم.

والأبن الأصغر (أسامة) تخرَّج من كلية الهندسة قسم الكهرباء، عيّن بوزارة الكهرباء، ويمارس عملاً حراً، ومازال يأمل فى الدراسات العليا حين إتاحة الفرصة له.

• **ماذا عن الأحفاد الذين حمل أحدهم اسم يوسف ؟**

تزوج البنات كلهن، ورزقنى الله منهن أحد عشر حفيداً من ذكور وإناث، ومازلت أنتظر زواج الأبناء من زوجات صالحات.

الحب: نعمة

• **كيف تعلل – فى إطار الجانب الإنسانى – علاقة الحب بينك وبين الناس ؟**

أنا أنظر إلى ما بينى وبين الناس من حب فى إطار العدالة الإلهية، فقد يحرم الإنسان من شئ كحنان الأبوين – مات والدى وأنا فى السنة الأولى من الابتدائية الأزهرية – ويرزق حب الأقارب، رجالاً ونساء، أعماماً وعمات، وأخوالاً وخالات، ويرزق حب الناس، وأنا ممن حبَّب الله تبارك وتعالى فىَّ الناس، وقد كانت والدتى تدعو " ربنا يحبب فيك خلقه"، وكانت جدتى تقول: " يحبب فيك الرب فى عرشه والجند فى فرشه، ويحبب فيك الحصى فى الأراضى، ويجعل فى وشَّك (وجهك) جوهرة، وفى حنكك (فمك) سكرة "، وأنا أحس وكأن الله تبارك وتعالى قد استجاب لدعوات أمى وجدتى.

أرق للمآسى دوماً

• **وأنت تجوب العالم الإسلامى كيف تقابل المشكلات وتعالج مآسى الأمة المستمرة فى كل مكان ؟**

أرق كثيراً لما يصيب المسلمين من مآسى وهموم، وتذرف عينى بالدموع حين أسمع إنساناً يشكو حاله أو رأيت منظراً مؤثراً، فمآسى الناس تؤثر فىّ .. ودعنى أقول لك: إن جانب الحزن لدى أشد من جانب الفرح، وربما كان هذا طابعاً عند المصريين عامة، حتى إن الناس فى حين يضحكون يقولون: يارب اجعله خيراً، فهم لا يتوقعون استمرار الضحك .. فالإحساس بالمؤلم أشد عندى من الإحساس بالمفرح.

عاطفى: نعم

• **الفقيه المعاصر يعمل العقل والفكر فى مجال الدعوة .. لكن هذه الكلمات يبدو منها أنك إنسان عاطفى ... هل تصح هذه المقولة ؟**

نعم أنا إنسان عاطفى، فالإنسان عقل وقلب، فأنا أبغض الظلم جداً كما ذكرت لك، فأنا لا أحب أن أظلم، ولا أحب أن أُظلم، ولا أن أرى احداً يُظلم، وأقاوم الظلم بكل

ما أستطيع، وهذا من القيم الإسلامية التى أورثها لنا الإسلام: " قل يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى، وجعلته بينكم محرّماً فلا تظالموا ".

كما يغلبنى الحياء .. وأحياناً يشتد حتى يصل إلى درجة الخجل، خاصةً من هؤلاء الذين يملكون وجهاً جامداً، لذلك أنا لا أحب الإلحاح، وإذا اضطررت لطلب شىء أطلبه مرة واحدة، لا أستطيع أن ألح، وعلى العكس: أنا أضعف أمام الإلحاح، وأحياناً أضعف حتى أُلام: لماذا وافقت على هذا الأمر ؟

ولم أكن موافقاً من الناحية المنطقية على الأمر، لكننى أضعف أمام ضغط الإلحاح.

عاطفة المرأة

- **المرأة ذات عاطفة أطغى، هل يمكن أن تؤثر فيك هذه العاطفة الخاصة بالمرأة ؟**

هى تؤثر فىّ فى حالة ضعفها، تشكو حالها، تستغيث بى، طبعاً أضعف أمام هذه المرأة .. وأنا أضعف أمام الضعفاء عامة.

- **هل لأنك تعرضت لظلم من قبل ؟ أم لأنك نشأت يتيماً ؟**

لعل هذا صحيح، أو لعل نشأتى يتيماً أثرت فى ذلك، وكانت قوة الجانب العاطفى لدىّ.

مع ابن باز

- **إذا انتقلنا إلى محور علاقاتك بعلماء العصر، نذكر صورة هذه العلاقة مع سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز مفتى السعودية الأسبق، حيث أعلم خصوصيتها رغم اختلافكما فى منهج الإفتاء، وقد رثيته رثاءً حاراً حين وفاته منذ مايو – أيار ١٩٩٩م .. هل تضىء لنا شيئاً من هذا الجانب ؟**

سماحة مع ابن باز

منذ أكثر من ربع قرن أرسل إلىَّ الشيخ ابن باز – رحمه الله – كتاباً، يخبرنى فيه أن وزارة الإعلام قد عرضت عليه كتابى المعروف (الحلال والحرام)؛ هل يفسح له لدخول السعودية أو لا يفسح، وأنه يود ألا يحرم القراء فى السعودية من كتبى التى (لها ثقلها فى

العالم الإسلامى) كما ذكر الشيخ، وأن المشايخ لهم ملاحظات على الكتاب تتحدد فى ثمان نقاط ذكرها، وأنه يرجونى أن أعيد النظر فيها، فإن اجتهاد الإنسان قد يتغير من وقت لآخر.

وقد رددت يومها على الشيخ برسالة رقيقة قلت له فيها: إن أحب علماء الأمة علىَّ ألا أخالفه فى رأى هو الشيخ ابن باز، ولكن قضت سنة الله ألا يتفق العلماء على رأى واحد فى كل المسائل، وقد اختلف الصحابة بعضهم مع بعض، واختلف الأئمة بعضهم مع بعض، فما ضرهم ذلك شيئاً، اختلفت آراؤهم ولم تختلف قلوبهم، وبعض هذه المسائل الثمانى اختلف الناس فيها من قديم، مثل قضية وجه المرأة أهو عورة أم ليس عورة ؟ وقضية الغناء بآلة وبغير آلة، ما حكمه ؟ وسيظل الناس يختلفون فيها إلى ما شاء الله، ويرد بعضهم على بعض، ولا حرج فى ذلك، ولا إنكار فى مسائل الخلاف، وهذا من سعة هذا الدين وصلاحيته لكل زمان ومكان .. وهناك قضايا فهمت عنى خطأ، فقد قيل: إنى أبحتُ التدخين، أو ترددت فى الحكم عليه، مع أنى معروف بالتشدد فى هذا الأمر، ومن قرأ كتابى أو غيره تبين له ذلك بجلاء، ومثل بذلك قضية جواز المودة مع الكافر، وأنا لم أجز المودة مع كل كافر، ولو كان محاداً محارباً لله ولرسوله وللمؤمنين، إنما المودة مع المسالم الذى له حق على المسلمين، ولهذا أجاز الشرع للمسلم أن يتزوج كتابية مع ما افترض أن يكون بين المرء وزوجه من مودة ورحمة.

• كيف سمح الشيخ ابن باز بدخول الكتاب إلى السعودية مع اختلافه معك وإصرارك على رأيك الفقهى فى هذه المسائل ؟

قلت له: أرجو ألا يكون خلافى فى بعض المسائل سبباً فى منع كتابى من دخول السعودية، وقد استجاب الشيخ رحمه الله – فيما ظهر لى – إلى رغبتى، وسمح لكتابى وغيره بدخول سوق السعودية، واتصل حبل الود بينى وبينه فى مناسبات كثيرة.